المحاضرة الثانية: التاريخ من المصطلح إلى المفهوم

تعريف مصطلح "تاريخ":

إن الهدف من هذه الانطلاقة ليس الرجوع إلى النقول الثقيلة والتأصيلات الكثيرة والمختلفة لكلمة "تاريخ"، بقدر ما هي محاولة لتجاوز الجدال السطحي الخاص بالتسمية نحو عمق الفهم الخاص بالإنسان المهتم بقضايا التاريخ، في وقت لا تزال بعض الجامعات العربية والجزائرية تعتمد في تناولها للتاريخ وعلم التاريخ والعلوم التاريخية على معلومات جد تقليدية مستوحاة من المنظور الثقافي الكلاسيكي الوسيطي الضارب في عمق الحضارة العربية الإسلامية، ولا يزال البعض من الأساتذة والباحثين والطلبة يستخدمون التعاريف الأولى التي ضمنها الرازي والكافيجي والسخاوي كتبهم؛ ويقابلون كل ذلك بما استحدث في مقدمة عبد الرحمن بن خلدون، ويجعلون من قضايا الاختلاف بين كلمتي التاريخ والتأريخ والتوريخ إشكالية يجب البت فيها بإسهاب، أما إشكالية أصل تسمية "التاريخ" فقد حظيت هي الأخرى بحظ وافر من الكتابة، وفي هذا الإطار نجد الكثير من الفرضيات والإسقاطات المعتمدة على نقول قديمة من مصنفات القرن الثالث والرابع الخامس الهجري، والتي تتميز بالموسوعية وأبعد ما يكون عن الاختصاص ككتاب **مفاتيح العلوم** للخوارزمي، و**إحصاء العلوم** للفارابي وما إلى ذلك، وهذا ما يجب تجاوزه إلى ما هو أعمق منه.

أما كتاب **الإعلان بالتوبيخ**... للسخاوي؛ وعلى الرغم من اختصاصه في مناقشة هذا الطرح في التعريف بالتاريخ والدفاع عنه وعن المهتمين به ضد منتقديهم، فإنه لم يخرج عن التقليد الأدبي السائد، كما نجده يفتقد للتنظيم، ثم أن خطته العامة مستوحاة من كتاب **المختصر المفيد في علم التاريخ**[1]، فهو على العموم قسم عمله إلى ثلاث عشرة فصلا، فبدأ بتعريفه –أعني التاريخ– لغة واصطلاحا، ثم موضوعه، ثم فوائده وعبره، ثم غايته، ثم حكمه الديني، وبعدها تطرق إلى الأدلة التي تثبت حكمه من الكتاب والسنة، ثم الرد على من ذمه، ثم الشروط الواجب توافرها في المعتنين به من باحثين وطلاب، وهذه أهم المفصول التي تضمنها عمله، ليختم بفصول عامة تحمل انتقاءات مختلفة، كحديثه عن أئمة الجرح والتعديل، والحديث عمن صنف في هذا العلم وأهم تلك المصنفات، إلى غير ذلك[2].

---

(1) صالح أحمد العلي، تقديم كتاب الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986، ص08.

(2) شمس الدين السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، ترجمة صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986، ص16.

ولا يتطلب الكثير من الجهد لملاحظة ذلك التوافق والتشابه بين الكافيجي و السخاوي مع الرازي في التعريف اللغوي لكلمة "تاريخ"، فالتاريخ حسب الكافيجي هو "تعريف الوقت"[3]، وعند السخاوي هو "الإعلام بالوقت"[4]، كما أن من السهولة بما كان أن نلمس نقول السخاوي والكافيجي وغيرهما عن الجوهري في اشتقاق الكلمة، التي ردوها إلى "الأَرْخ"، أو بكسر الهمزة، وهذه الكلمة تدل على صغار الأنثى من بقر الوحش، لأنه شيء مُحْدَثٌ كما يَحْدُثُ الولد[5]، ولكن لا يوجد مبرر لهذه الفرضية فهي من الناحية العلمية مستبعدة جدا ما لم تظهر قرائن تشير إلى وجود علاقة بين الأرخ والتاريخ.

اعتنت الكثير من الدراسات العربية المعاصرة بمصطلح التأريخ خاصة والكتابة التاريخية عند العرب عامة، ولعل ما هو جدير بالذكر في هذا الإطار؛ دراسة المؤرخ قاسم عبده قاسم الموسومة بـ: **الرؤية الحضارية للتاريخ –قراءة في التراث التاريخي العربي–**، وكذا دراسة حسين مؤنس بعنوان: **التاريخ والمؤرخون –دراسة في علم التاريخ، ماهيته وموضوعاته ومذاهبه ومدارسه عند أهل الغرب وأعلام كل مدرسة، وبحث في فلسفة التاريخ ومدخل إلى فقه التاريخ.**

وفي إطار التعريف بالمصطلح؛ اتفق حسين مؤنس مع قاسم عبده قاسم إلى أن أصل لفظة التاريخ مشتق من Arch، هذا اللفظ الأخير الذي ينطق "أرخ"، الذي يحمل معنى القديم، الذي اشتق منه Archéologie وهو علم الأثار[6]، أما المصطلح الإنجليزي History، والفرنسي Histoire فمن الواضح أنهما تحريف طفيف عن المصطلح اللاتيني Historia، الذي هو بدوره مشتق من كلمة ستوريا (ιστορία) اليونانية، ومعناه القصة[7]، لا شك أن هذا يتشابه كثيرا مع المصطلح الذي دخل إلى العربية مبكرا وهو: أسطورة، جمعها أساطير، وقد ورد في القرآن كثيرا، وفي الوقت نفسه ورد في القرآن مصطلح آخر وهو القصص في قول الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾[8]، غير أن القرآن

---

[3] محي الدين الكافيجي، المختصر في علم التاريخ، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، ط1، عالم الكتاب، بيروت، 1990، ص53.

[4] المرجع نفسه، ص16.

[5] المرجع نفسه، ص16.

[6] حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون، دار المعارف، القاهرة، 1984، ص07.

[7] المرجع نفسه، ص07.

[8] سورة يوسف، الآية 03.

يستعمل مصطلح الأساطير بما يفيد القصص الخيالية التي يصعب تصديقها، في حين يستعمل مصطلح القَصَص للإشارة على ما يوحيه الله على نبيه من أخبار الأمم الماضية.

وآخر ما يمكن أن نختم به موضوع جدل التسمية، هو أن كل الاتجاهات الفكرية كانت تقابل مصطلح التاريخ بمادة التاريخ، لهذا فإن الحديث عن المصطلح يستدعي الحديث عن المفهوم، وإذا كانت جدلية المصطلح تميل إلى الرتابة والجمود والاستقرار وتطمئن إلى تأويلات وتأصيلات معينة أكثر بساطة، فإن إشكالية المفهوم تنطلق من المبسط إلى المعقد ومن السطحي إلى الأعمق، ولعل هذا ما يتجلى في تحديد مادة التاريخ التي بدأت بالحدث التاريخي وهو ما تمثله الرؤية الكلاسيكية -اليونانية بالخصوص-، التي انتهت إلى التعليل والاستنباط للحدث التاريخي في العصور الوسطى، ثم قوانين التاريخ أو القوانين في التاريخ وهذه أولى الإرهاصات النقدية لدراسة التاريخ التي أشار إليها عبد الرحمن بن خلدون، وقد أفضى هذا الأمر إلى العقل والروح التاريخيين في العصر الحديث، ومنها نحو الحس والوعي التاريخيين وذلك منذ بداية القرن العشرين، وصولا إلى نفق النهايات في التاريخ، ثم الأفق التاريخي أو الإمكان التاريخي، ثم لا ندري إلى أين !!

إشكالية المفهوم:

لم يخرج شمس الدين السخاوي في تحديد مفهوم التاريخ في زمانه عن ذلك التعريف الذي وضعه في أول كتابه "التعريف بالوقت"، لهذا فإننا نجده يعطي أهمية بالغة للحدث والزمن معاً، مكتفيا بسطحية هذا الطرح، فيحصر وظيفة التاريخ -دون المؤرخ- في ضبط "الأَحْوَالِ مِنْ مَوْلِدِ الرُّوَاةِ وَالْأَئِمَّةِ وَوَفَاةٍ وَصِحَّةٍ وَعَقْلٍ وَبَدَنٍ وَحَجٍ وَحِفْظٍ وَضَبْطٍ وَتَوْثِيقٍ وَتَجْرِيحٍ"[9] ، غير أنه يضيف مقاربة معلمية عبر عنها بعبارة: «الْفَحْصُ عَنْ أَحْوَالِهِمْ فِي ابْتِدَائِهِمْ وَحَالِهِمْ وَاسْتِقْبَالِهِمْ»"، غير أنه في هذا أيضا يبتعد عن المعلم الاجتماعي للرجوع إلى الحدث في "مَا يَتَّفِقُ مِنَ الْحَوَادِثِ وَالْوَقَائِعِ الْجَلِيلَةِ، مِنْ ظُهُورِ مَلَمَّةٍ وَتَجْدِيدِ فَرْضٍ وَخَلِيفَةٍ، وَوَزِيرٍ، وَغَزوَةٍ وَمَلْحَمَةٍ وَحَرْبٍ وَفَتْحِ بَلَدٍ وَانْتِزَاعِهِ مِنْ مُتَغَلِّبٍ عَلَيْهِ..."[10].

وباستثناء ما ذكر شمس الدين السخاوي عن التعريف الإصلاحي أو فهوم التاريخ عنده؛ فإنه بعد هذا يخرج عن الموضوع لمعالجة مواضيع تاريخية أخرى تتضمن اختلاف بعض الرواة في تحديد أوقات بعض الحوادث والوفيات، كل ذلك من أجل تبيين فائدة التاريخ التي لا تخرج عن نطاق "أَنهُ

(9) شمس الدين السخاوي، مرجع سابق، ص18.

(10) المرجع نفسه، ص18.

أَحَدُ الطُّرُقِ الَّتِي يُعْلَمُ بِهَا النَّسْخُ فِي أَحَدِ الْخَبَرَيْنِ الْمُتَعَارِضَيْنِ الْمُتَعَذِّرِ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا"[11]، كما يصوغ في ذلك الكثير من النقول التي تبرر لأهمية التاريخ وفوائده الدنيوية والأخروية في ما يمكن أن نلخصه في العبر[12].

ويبدو من خلال الاطلاع على كتب العصر الوسيط ممن تطرق لفائدة علم التاريخ؛ فإن جلها اتفقت على ما لخصه تقي الدين المقريزي في كتابه المشهور **بالخطط المقريزية** في العبارة التالية: «فَإِنَّ عِلْمَ التَّارِيخِ مِنْ أَجَلِّ الْعُلُومِ قَدْرًا، وَأَشْرَفِهَا عِنْدَ الْعُقَلَاءِ مَكَانَةً وَخَطَرًا، لِمَا يَحْوِيهِ مِنَ الْمَوَاعِظِ وَالْإِنْذَارِ، بِالرَّحِيلِ إِلَى دَارِ الْآخِرَةِ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ، وَالْإِطِّلَاعِ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ لِيُقْتَدَى بِهَا، وَاسْتِعْلَامِ مَذَامِ الْفِعَالِ لِيَرْغَبَ عَنْهَا أَوْلَو النُّهَى»[13] ، وهذا الضرب من الكلام يتكرر في مصنفات العرب والمسلمين لدى المسعودي والطبري وابن كثير وابن الجوزي والذهبي وابن خلدون، وصولا إلى مؤلفات المؤرخين في العصر الحديث كالمقري والجبرتي وأبي راس الناصر المعسكري وأبو القاسم الزياني وغيرهم كثيرون.

التاريخ عند ابن خلدون:

أما ابن خلدون فإني لا أعرف مؤرخا كتب بالعربية حظي بذلك القدر الكبير من الاهتمام والدراسات في العالم العربي أو في الغرب، كما حصل مع ابن خلدون، ولا أدل على ذلك مما ذكر عنه المفكرون ممن اهتموا به أو اهتموا بالتاريخ والسياسة وعلم الاجتماع، وعلى سبيل المثال؛ يذكر عنه فيليب حتي: «ابن خلدون أعظم فيلسوف ومؤرخ أطلعه الإسلام، وأحد اعظم الفلاسفة والمؤرخين في كل العصور»، وبذلك عبر هاشم الصالح عن مكانة الرجل في تاريخ الفكر الإنساني على أن ما قدمه في ساحة علم الاجتماع السياسي ودراسة القوانين التي تتحكم بنشوء الحضارات، ونضجها، فموتها، فابن خلدون على الرغم من عظمته، ليس فولتير ولا مونتسكيو ولا جان جاك روسو، ناهيك عن أن يكون دوركهايم أو كارل ماركس، ولكنه سبق كل هؤلاء إلى الدراسة العلمية للمجتمعات البشرية، صحيح أن هذه الدراسة حققت بعده قفزات هائلة في أوروبا، ولكن يكفيه

---

[11] شمس الدين السخاوي، مرجع سابق، ص19.

[12] المرجع نفسه، ص48 وما يليها.

[13] تقي الدين المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1998، ج1، ص05.

أنه كان له شرف الريادة والسبق»[14]، لهذا فلا غرو أن نجد مقدمة ابن خلدون قد حظيت هي الأخرى بالنشر والتحقيق مرارا، والترجمة إلى الكثير من اللغات العالمية[15]، ويذهب دارسون لفكر ابن خلدون على أنه أول المؤسسين لفلسفة التاريخ !! [16].

لعل أول ما يستوقفنا في مناقشة مفهوم التاريخ عند ابن خلدون هو تجاوزه لتعريف التاريخ، وإنما تطرق إلى حقيقة التاريخ التي وصفها بقوله: «إِنَّهُ خَبَرٌ عَنِ الْاِجْتِمَاعِ اْلإِنْسَانِيّ الَّذِي هُوَ عُمْرَانُ الْعَالَمِ»[17]، ولو توقف ابن خلدون عند ها الحد لكان جديرا بأن يوصف أنه استلهم كل التعريفات الأولى التي سبقت، ووقف على جوانب النقص فيها، محاولا بالفعل تجاوزها الحدث كمادة تاريخية، نحو ما أسماه حقيقة التاريخ[18]، غير أن ابن خلدون سيتوسع في ذلك؛ إذ أن عمران العالم ليس هو الغاية النهائية التي يحاول التاريخ وصفها؛ وإنما أيضا ما يعرض لطبيعة ذلك العمران من تغيرات عبر الزمن، إذ أن الحدث هنا سيغيب في سياق أحداث كثيرة وعلى مدى طويل، ليظهر ما نسميه بالنتيجة أو التغير، فالتاريخ في حقيقته يرصد ذلك التغير الذي يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال، ويسوغ في ذلك مجموعة من الأمثلة: التوحش، التأنس، العصبيات، والتغلب، ونشأة الممالك والدول، ما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش، والعلوم والصنائع وغيرها[19].

يكرر عبد الرحمن بن خلدون استخدامه لمصطلح فن، وهو ما أوقع الكثيرين في لبس كبير، فكان من السهل عليهم أن يذكروا أن ابن خلدون لم يكن يعترف بالتاريخ كعلم أصلا، معتبرين مصطلح "فن" أقل مكانة من مصطلح "علم"، ولربما ذهبوا إلى أبعد من ذلك مبررين موقف ابن خلدون على أنه لا يمكنه الخروج عن روح العصر، العصر الذي لم يتطرق فيه أحد لعلمية التاريخ، وآخرون يعللون ذلك بأن لفظة فن؛ كانت تعني صنعة أو مهنة، غير أن المدقق

---

[14] هاشم صالح، "ابن خلدون في مرآة الغرب"، صحيفة البيان، الإمارات العربية المتحدة، 10 نوفمبر 2006.

[15] للمزيد أنظر: ساطع الحصري، دراسات عن مقدمة ابن خلدون، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، دار الكتاب العربي، بيروت، 1967.

[16] زينب الحضري، فلسفة التاريخ عند ابن خلدون، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1989، ص67.

[17] عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، 1988، ص46.

[18] المرجع نفسه، ص46.

[19] المرجع نفسه، ص46.

في عبارات ابن خلدون في تبيان ذلك، يمكنه أن يكتشف العبقرية الكامنة فيه، لهذا يمكن أن نميز بين التاريخ في فهم العامة "فَإِنَّ فَنَّ التَّارِيخِ مِنَ الْفُنُونِ الَّتِي تَتَدَاوَلُهُ الْأُمَمُ وَالْأَجْيَالُ، وَتُشَدُّ إِلَيْهِ الرَّكَائِبُ وَالرِّحَالُ، وَتَسْمُو إِلَى مَعْرِفَتِهِ السُّوقَةُ وَالْأَغْفَالُ، وَتَتَنَافَسُ فِيهِ الْمُلُوكُ وَالْأَقْيَال"[20]، كل هذا يمكن أن نعتبره تعريفا للتاريخ كَفَنٍ، أو تعريفا للتاريخ عند العامة والجمهور، وهو ما يقصده في قوله "إِذْ هُوَ فِي ظَاهِرِهِ لَا يَزِيدُ عَنْ أَخْبَارٍ عَنِ الْأَيَّامِ الدُّوَل، وَالسَّوَابِقِ مِنَ الْقُرُونِ الْأُوَل"[21]، أما باطنه؛ فهو من صنعة المؤرخ، وهي صنعة النظر والتحقيق، "وَتَعْلِيلٌ لِلْكَائِنَاتِ وَمَبَادِئِهَا دَقِيقٌ، وَعِلْمٌ بِكَيْفِيَّاتِ الْوَقَائِعِ وَأَسْبَابِهَا عَمِيقٌ"[22]، ليحدد الشروط التي يكون فيها هذا الفن علما، "فَهُوَ لِذَلِكَ أَصِيلٌ فِي الْحِكْمَةِ عَرِيقٌ، وَجَدِيرٌ بِأَنْ يُعَدَّ فِي عُلُومِهَا وَخَلِيقٌ" [23].

مفهوم التاريخ لدى عبد الله العروي:

يعتقد عبد الله العروي أن لا فرق بين التاريخ، الوقائع، والأخبار، فهو بهذا لا يفصل بين التاريخ والإنسان[24]، سواء كان الإنسان متخصصا أو مهتما أو غير مهتم بالتاريخ، أما بالنسبة للإنسان المتخصص في البحث والنظر في التاريخ؛ فإن نشاطاته وأعماله ونمط تفكيره؛ كل هذا لا نفصل عن التاريخ، بل ذلك هو التاريخ، وهو ما يحتوي به فكرة أن التاريخ هو ما يراه المؤرخ، أما غير المتخصص فإن التاريخ سيؤثر عليه بطريقة أو بأخرى باعتباره كائنا متأثرا بما حوله مع مر الزمن.

وبصورة أشمل فإن العروي يرى أن التاريخ سياق عام يمثل التجربة المعرفية للإنسان، وبهذا فإن التاريخ وعلم التاريخ لا يمكن أن ينفصلا، فالتاريخ إذا ليس الماضي فحسب، وإنما هو الماضي الحاضر، على اعتبار أن الحاضر هو نتيجة جهد الماضي، أو جهد الإنسان في الماضي، في الوقت نفسه هو فهم الإنسان للحاضر من خلال النظر في الماضي[25]، ولا بد من استعارة شيء مما أورده العروي في كتابه **مفهوم التاريخ**... فهو في هذا المجال يقول: «يكفي ان نستحضر الماضي، أن نقرر

---

[20] عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ص06.

[21] المرجع نفسه، ص06.

[22] المرجع نفسه، ص06.

[23] المرجع نفسه، ص06.

[24] عبد الله العروي، مرجع سابق، ص33.

[25] المرجع نفسه، 45.

أن الماضي هو مجموع آثار القرون الخالية، أن نأخذ كل واحدة من هذه الكلمات بكل جد... كما يشير الاطمئنان إلى ما هو حاضر/ مستحضر...»[26] .

---

[26] المرجع نفسه، 45.